النفحة السادسة والعشرون: رَمَضَانُ شهر التوبة والغفران

أحبـاب اللهِ:

لم يبق من شهر رَمَضَانَ إلّا أيام قلائل، مضت معظم أيامه ولياليه، فيا طوبى من اغتنمها بالطاعات والقربات، ويا فوز من داوم على العبادات، ويا سعادة من ختم هذا الشهر بالتوبة والأوبة، وودعه بالاستغفار والإنابة، فمَن من البشر ـ ما عدا الرسل والأنبياء ـ معصوم من الزلل، وممنوع من الخطأ، كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

أيهـا الصائمـون الأكـارم:

كلنا ذو خطأ، وكلنا يصدر عنه الزلل، تصيبه غفلة فيشرد عن صراط اللهِ، ويعتريه نسيان فيقع في دوَّامة الذنوب، ولكن من فضل اللهِ تعالى ورحمته أنه فتح لنا باب التوبة، وحبانا بنعمة القبول، ولنصغ معاً إلى هذا البيان القرآني: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزُّمَر: 53 ـ 58].

يا سبحان اللهِ، هل يبقى بعد هذا الكلام يائس أو قانط، إنه نداء الحب والود والحنان، من صاحب الجلال والإكرام، للذين أسرفوا على أنفسهم، وفرطوا في جنب اللهِ تعالى، إنه يدعوهم إلى الأوبة وقد فتح لهم الأبواب على مصراعيها، يدعوهم إلى الأمل والرجاء بعفوه، لأنه عليم بضعفهم وتقصيرهم، وخبير بتركيب نفوسهم وطبائعها، وما سلط عليها من عوامل فتاكة سواء كانت داخلية أو

خارجية، خبير بهذه النفس الأمارة بالسوء، بتضاعيفها، ومسالكها، وتعرجاتها، ومنحنياتها، وما تفضي هذه المسالك بعد ذلك إلى التية والضلال والشرود.

إنه ليس بينك أيها العبد وبين رحمة الله الواسعة، وفضله العميم، إلّا أن تمرغ الجبين ذلاً واعترافاً بما جنت يداك، ليس بينك وبين عفو الله الندي الرخي، إلّا إعلان التوبة الصادقة النصوح... ورجوعك إلى الله تعالى لا يحتاج إلى طقوس ووسطاء، ولا يستدعي مراسم وحواجز وشفعاء.

واعلـم أخي المسلـم:

إن الغفلة عن التوبة والركون إلى المعصية، سبب من أبرز الأسباب التي تحجب صاحبها عن ربه تبارك وتعالى، ولا شك أن المحجوب يصطلي بجحيم الفراق، ووحشة البعد، ولا شيء يبعد عن لقاء الله ووده وحبه إلّا اتباع الشهوات، والأنس بمغريات الحياة الفانية، والانكباب على حب ما لابدّ من فراقه، ولا شيء يقرب العبد من خالقه تبارك وتعالى مثل قطع علاقة القلب عن زخرف الدنيا وفتونها، والإقبال بالكلية على الله تعالى، طلباً للأنس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: 8].

وقال ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النُّور: 31].

وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: 222].

فهذه الآيات البينات وغيرها كثير، ترغب في فضل التوبة وتحث عليها، وتظهر أن التائب هو المفلح إذا خسر الناس، وهو حبيب الله إذا غضب الجبار تبارك وتعالى، وهو الذي يمتطي مركب الفلاح مع خير البشر ﷺ والكوكبة المنيرة

حوله من صحبه الكريم.

والأحاديث في هذا السياق كثيرة منها قوله ﷺ: **«للَّه أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دورية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فاللَّه أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»**[1].

ألا يبهرك أخي المسلم هذا الترحاب الغامر، أترى سروراً يعدل هذه البهجة الغامرة؟

إن أنبل الناس عرقاً، وأطهرهم نفساً، قلما يجد فؤاداً يتلهف على لقائه بمثل هذا الحنين، فكيف بخطَّاء أسرف على نفسه، وأساء إلى غيره؟ إنه لو وجد استقبالاً يستر عليه ما مضى لكان بحسبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشكر، أما أن يفاجأ بهذه الفرحة وذلك الاستبشار، فذلك ما يثير الدهشة، لكن الله تعالى أبرَّ بالناس وأسرَّ بأوبة العائدين إليه مما يظن القاصرون.

وقال ﷺ: **«إن الله ﷻ يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»**[2].

وعند البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل، فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لقد قتل تسعة وتسعين نفساً فليست له توبة، قال: فانتضى سيفه فقتله فكمل مائة، ثم إنه مكث ما شاء الله، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل فأتاه فقال: إنه قد قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال: ومن يحول بينه وبين التوبة، اخرج من القرية الخبيثة التي**

(1) رواه مسلم، 4/ 2103، رقم: (2744).

(2) رواه مسلم، 4/ 2113، رقم: (2759).

أنت بها إلى قرية كذا وكذا فاعبد ربك ﷻ فيها، قال: فخرج وعرض له أجله، فاختصم فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة، قال إبليس: إنه لم يعصني ساعة قط، قالت ملائكة الرحمة: إنه خرج تائباً، قال: فبعث الله ملكاً فاختصما إليه، قال: انظروا إلى أي القريتين كان أقرب فألحقوه بها»، قال قتادة: فقرب الله منه القرية الصالحة، وباعد عنه القرية الخبيثة فألحقوه بأهلها»[1].

ولقد وضع العلماء شروطاً للتوبة، ذكرها الإمام النووي رحمه الله تعالى في رياضه يقول: (قال العلماء: التوبة واجبة مِنْ كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عَنْ المعصية.

والثاني: أن يندم عَلَى فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة وأن يبرأ مِنْ حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه مِنْه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله مِنْها، ويجب أن يتوب مِنْ جميع الذنوب، فإن تاب مِنْ بعضها صحت توبته عند أهل الحق مِنْ ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي)[2].

وفي تفسير «التحرير والتنوير» يقول ابن عاشور رحمه الله: (ومن شروط التوبة تدارك ما يمكن تداركه مما وقع التفريط فيه، مثل المظالم للقادر على ردّها، روي عن علي رضي الله عنه:

يجمع التوبة ستة أشياء:

1 **الندامة على الماضي من الذنوب.**

(1) رواه البخاري، 3/ 1280، رقم: (3283)، وبعض الزيادات عند ابن حبان، 2/ 376، رقم: (611).

(2) رياض الصالحين، ص18.

2 إعادة الفرائض ورد المظالم.

3 استحلال الخصوم.

4 أن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية.

5 أن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي.

6 تقوم مقام ردّ المظالم استحلال المظلوم حتى يعفو عنه)[1].

وأما حقيقة التوبة:

فقد ذكر صاحب المنازل[2] حقائقها فقال: وحقائق التوبة ثلاثة أشياء: تعظيم الجناية، واتهام التوبة، وطلب أعذار الخليقة.

فأما تعظيم الجناية:

فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها، وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الآمر، وتعظيم الأمر والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة:

فلأنها حق عليه لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة علة، وهو لا يشعر بها، كتوبة أ ب الحوائج والإفلاس والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه ب محافظة على حاله، فتاب للحال لا خوفاً من ذي الجلال، أو أنه تاب طلباً احة من الكد في تحصيل الذنب أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور، 28/ 330.

(2) مدارج السالكين، لابن القيم، 1/ 185.

والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته، وإجلالاً له وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة.

فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون، ومن اتهام التوبة أيضاً ضعف العزيمة والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة، وتذكر حلاوة مواقعته، فربما تنفس وربما هاج هائجه، ومن اتهام التوبة طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أعطي منشوراً بالأمان.

ولقد تحدث العلماء الربانيون عن حقيقة التوبة، وقالوا فيها كلاماً ينقش بماء الذهب على صفحات النور، أنقله لكم من الإحياء[1]: يروى عن الحسن قال: لما تاب الله ﷻ على آدم عليه السلام، هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا آدم قرّت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورّثت ذويك التعب والنصب وورّثتهم التوبة، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب.

وقال الفضيل: قال الله تعالى: (بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم).

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: مَن ذكر خطيئة ألمَّ بها فوجل منها قلبه، محيت عنه في أم الكتاب.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة، فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

(1) إحياء علوم الدين، 4/ 9 ـ 10.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقاً منه، فيغفر له.

ويروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به: هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلّا باب التوبة، فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق فاعمل ولا تيأس.

وقال عبد الله بن سلام: لا أحدّثكم إلّا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

وقال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوّابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: إن للّه عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عيّ ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون باللّه ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم، وقرؤوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة، ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

أيها الأحباب:

إن التوبة هي أول مراحل الطريق، بل هي المدخل المفضي إليه، والقرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية، والناس قلما ينجون في حياتهم من

العثار والتخليط، وما أكثر ما يرديهم طيش الغرائز، وضعف الرأي، وقلة التجربة، واضطراب اليقين.

إن الخطأ في حق الله تعالى لا يداويه إلّا اعتذار المخطئ نفسه، فلو اعتذر عنه أهل الأرض جميعاً، وفي مقدمتهم النبيون، وبقي هو على عوج نفسه فلن يقبل عنه اعتذار، ولن ينفعه استغفار، لابدّ أن يجثو المذنب في ساحة الرحمٰن ثم يهتف من أعماق قلبه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: 118].

وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»[1].

وهذا الحديث وأمثاله جرعة تُحيي الأمل في الإرادة المخدَّرة، وتنهض العزيمة الغافية وهي خجلى، لتستأنف السير إلى الله، ولتجدد حياتها بعد ماضٍ ملتوٍ مستكين.

لا أدري لماذا لا يطير العباد إلى ربهم على أجنحة من الشوق، بدل أن يساقوا إليه بسياطٍ من الرهبة؟

إن الجهل باللّه وبدينه، هو علّة هذا الشعور البارد أو هذا الشعور النافر ـ بالتعبير الصحيح ـ مع أن البشر لن يجدوا أبرَّ بهم ولا أحنى عليهم من الله ﷻ، وبرُّه وحنوه غير مشوبين بغرض ما، بل هما آثار كماله الأعلى، وذاته المنزهة.

أسفاً على عمري الذي ضيعته ... تحت الذنوب، أنت فوقي ترصُد!
يا رب لم أحسب مرارة مصدر ... عن زلة قد طاب منها المورد
يا رب قد ثقلت عليَّ كبائر ... بإزاء عيني لم تزل تتردَّد!
يا رب إن أبعدت عنك فإن لي ... طمعاً برحمتك التي لا تبعد

(1) رواه الترمذي، 5/ 548، رقم: (3540)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه.

يا رب ما لي غير لطفك ملجأ ولعلَّني عن بابه لا أُطرد!
يا رب هب لي توبة أفضي بها ديناً عليَّ به جلالك يشهد
أنت المجيب لكل داع يلتجي أنت المجيرُ لكل من يستنجد

obeikandl.com